دموع الشاعرة

موجة الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ، وهى التى كانت تجلس على الشاطىء مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس الى خضمه الصاخب وتنأى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافى .. وكانت تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هى الا بقدر ما يتأثر حانوتى فى مأتم .

لم تدر من علَّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة .. وكانت تقوله لأنها لايمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هى نفسها لتشعر بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى مشاعرهم .. كانت تعَلَّم الناس الهوى .. وهى اجهلهم به .. وكان شعرها يفيض بالحب .. وهى أشد الناس خلوا منه .. كانت كساقى الخمر يثمل الناس ولايثمل .. ويملأ بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد مايكون عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى لين ورفق .. ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف .. لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. اذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو يبدو فى حياته رقيقا هادئا .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف التى يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لايرق ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كتبه عن مسرحية (الخطايا) التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة .. فصب عليها جام سخطه ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرمط بها الأرض .

ونهض بدوره ومدّ يده مصافحا .. وقام الأستاذ شاكر بواجب التعريف .

– الاستاذ ابراهيم الكاتب العبقرى والناقد المعروف .. أمينة هانم فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل له .. فلا أظن كلاكما الا يعرف الآخر خير معرفة .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينيها ثم أردفت قائلة :

– الأستاذ ابراهيم : تشرّفنا يا أفندم .. طبعا أعرفه .. ومن الذى لايعرفه ؟

وأحس ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلا :

– العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهى تفصحه بعينيها ثم أردفت قائلة :

– من الذى لايعرفه ؟ ومن الذى لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يطّح فى خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحنى رأسه فى رقة وأدب :

– العفو يا افندم .

وتدخل شاكر قائلا :

– تفضلى يا أمينة هانم .

ومد يده فجر كرسيا .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

– أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟

ونظر اليها ابراهيم فاحصا .. فوجد بها نضارة عجيبة .. يندر أن توجد فى الممثلات ، وصمت برهة وأجابها ضاحكا :

– أتقصدين مثلا أن أبى قد قتل أباك ؟

– سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التى تشنها علّى ؟

– ان واجبى النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

– لا .. لا يأستاذ .. أنت هدّام .. هذا ليس نقدا .. هذا ضرب بالسياط .. هل تدرى .. أننى فكرت فى أن أزورك لأطلب منك الرفق والرحمة ؟

– يا افندم العفو .. هذا كثير .. هذا تقدير لا أستحقه . فلا أظن تلك الكلمات التى أكتبها لها تلك القيمة .

– أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدرى أية خسارة سببتها لى حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدى .. ألم تقل عنى فى نقدك لفيلم (الهاربة) أنى أتلفت الفيلم ؟ .. ان أسوأ مافى الأمر أن لكتابتك قيمة .

– هذا شيء لو كان قد حدث حقا فانى عليه جد آسف . أنا لم أقصد قط أن أسيء اليك .. ولكنى قصدت بنقدى اصلاحك .. فانى أرى فيك معدنا طيبا .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك مواهب كامنة لم تستغل قط .. ان عيبك – كما قلت من قبل – هو أنك لاتحيين فى دورك . انك تؤدينه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكونى أنت نفسك تلك المخلوقة التى تقومين بدورك .

– انى أحاول ذلك فعلا .

– المحاولة شيء والنجاح شيء آخر ، فالنجاح فى التمثيل ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن تحيى فى دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهدا .. ان أقصى الجهد هو الذى لايبدو جهدا .

– وماذا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك ؟

– عيشى فى الدور الذى تؤدينه .. انسى نفسك .. ان لدىّ فكرة لاأشك ، لو حاولت تنفيذها ، فى أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل منك شيئا آخر .

– تنوى بيعها لى ؟

– لا .. بل سأهبها لك مجانا .. لقد قلت لك انه يجب أن تلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لاتستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لاتجربى أن تحيى دورك فى حياتك كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. البسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحيى دورك فى الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماما .

– ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه . هناك أدوار لا أستطيع أن أتقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

– لاتقبلى قط أدوارا لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لاتقبلى سوى الأدوار التى تتوقين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

– لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل الا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..

– بل لأضحيت خيرا مائة مرة مما أنت عليه .. لم لاتجربى ؟

وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها ضاحكا :

– لاتصغى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذارا نهائيا لكى لايعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :

- لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

* * *

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن في حديقة احدى الفيلات بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدا شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض في ذهنه ذلك اللقاء ، وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العريدة التى أوحى بها اليها وقتذاك ؟ تحيا في دورها ؟ لافي المسرح فقط بل في الطريق وفي الدار وفي كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التي تقوم بتمثيلها .. فلا تخلعها حتى تنتهي تماما من أداء الدور وتنفض يدها منه ؟

أى جنون هذا الذى دفعه الى أن يفضى اليها بذلك القول ؟ فض فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين .. ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة ستنقلب بمثل هذه الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شيء ممكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفى كل مرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو صلة .. مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيدا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لايستطيع عنها حولا .. وأخذت هي الأخرى تنساب في تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ، وتجد في أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التي كان لايفتأ يكررها لها .. (أحيي في دورك .. على المسرح وفي خارج المسرح .. ولاتخلعيه حتى تنتهي منه .. انسي نفسك وكوني دائما المخلوقة التي يود المؤلف ابرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله في يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد كان يعتقد أن الممثلة لايمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أبية حنونة ، وجد فيها بعدا عن التفاهة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم على الزواج منها .. وهكذا أضحى الناقد زوجا .. وأحست هي أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ في ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المدلهة) التي تقوم هي فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بروفات عديدة ، بذلت فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى اذا ما ترفق بها في نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى اذا امتدحها كان أمينا في نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا في دورها حقا وأن نفسها تلاشت في الشخصية الجديدة التي تقمصتها .. وبدأ هو يحس مبلغ ما في نصيحته من السخف والجنون عندما وجد أن

المخلوقة التى تدله فى حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الحس .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعناء مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط فى يده ولم يدر كيف يقنعها أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التى تقوم بدورها على المسرح فى حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شىء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، والا أضحت الحياة بجوارها جحيما لايطاق . وبدأ يذوق الأمرين فى الاعتذار عن هفواتها وسخافاتها وحماقاتها مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزيه شىء الا أن المسألة ليست الا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هى فى دورها الجديد أيما نجاح وبلغت فى تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحس هو بعبء يتزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التى أحبها قد عادت اليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذى ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم وقد عاد الى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع الى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرآة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفيها وتهدل شعرها على وجهها وبدت فى عينها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

.. رأيك ؟

– فيم ؟

– فى هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هى وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذى تنوى زوجته ارتداءه ، أو على الأصح تبين أى زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

– لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت اليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

– طبعا .. ستقول كعادتك دائما ، أنها بايخة .

– لا .. لا .. ان عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

– أريد أولا أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

– لا أستطيع أن أبدى رأيى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

– ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

– أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .

– وهل هذا معناه أني لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الدور الذى خلق من أجلك ، وخلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لايفعل شيئا سوى كتابة المسرحية الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لايزور أحدا ولايكلم أحدا .. وانتهى أخيرا من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى .. زهرة ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، أمرأة مثالية .. سديدة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصة .. ربة دار وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولاتعينها عليه .. هادئة طيبة ، حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشيء الذى عشقه فى صاحبته وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكى تقرأها وتبدى له رأيها فيها ، وجلس فى الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .

ومر الوقت بطيئا مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه وسألها هامسا :

– كيف وجدتيها ؟

فأجابت :

– مدهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينها دمعة ترقرق وسألها فى دهشة :

- ما بالك ؟

فقالت :

- لقد رسمتنى كما تريد .. وسأكون كما رسمتنى .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

- خذها لا حاجة بى اليها .. انى أستطيع أن أحيا فى دورى الذى رسمته بدون حاجة اليها .. انى سأحيا فى دورى هنا فى الدار فقط .. سأنجب أطفالا فى الحديقة لا على المسرح .. هذا هو دورى الأخير .

* * *